مجلة الآداب و العلوم الإنسانية ISSN: 1112-4628, EISSN: 2588-2449
مجلد: 08. عدد: 02 السنة :2009

آليات توظيف النصوص التاريخية من خلال كتب الرحلة والجغرافيا

المغرب الأوسط بين(كتاب البلدان) لليعقوبي و(صورة الأرض) لابن حوقل.

الأستاذ د/ إبراهيم بن مهية

جامعة الأمير عبد القادرللعلوم الإسلامية –قسنطينة

ملخص:

أن المؤرخ محتاج بالضرورة لاستخدام كل الآليات المعرفية والمصدرية المتاحة لاستكمال الصورة المطلوبة عن ماضـــي معين، ولعل كتب الرحالة وقدامى الجغرافيين وتدوينهم لملاحظاتهم خير معين في هذه العملية؛ فلو أردنا معرفة الواقع الذي كان عليه المغرب الأوســـط في القرن الثالث الهجري ومقارنته بواقع المناطق نفســـها في القرن الموالي(الرابع الهجري) فما علينا ســـوى التمعن في ما قاله اليعقوبي في كتابه (البلدان) مع ما قاله ابن حوقل في كتابه(صورة الأرض) عن كل مدينة أو قرية ...

الكلمات المفتاحية:

كتب الرحلة/المغرب الأوسط/كتاب البلدان/اليعقوبي/كتاب صورة الأرض/ابن حوقل.

In summary, the historian necessarily needs to use all the available cognitive and source mechanisms to complete the desired picture of a certain past. Perhaps the books of travelers and ancient geographers, along with their recorded observations, are the best aids in this process. If we wanted to know the reality of what the Central Maghreb was like in the third century AH and compare it with the reality of the same regions in the following century (the fourth century AH), we only need to delve into what al-Ya'qubi said in his book Al-Buldan and what Ibn Hawqal said in his book Surat al-Ard about each city or village.

Keywords:

Travel Books / Central Maghreb / *Al-Buldan* / Al-Ya'qubi / *Surat al-Ard* / Ibn Hawqal.

تمهيد:

إن المهمة الشاقة للمؤرخ هي الإنطلاق مما تبقى في حاضرنا من أحداث الماضي لإعادة ترميم الصورة الكاملة من بين ركام أجزاء متناثرة وربما متنافرة –وغالبا ماتكون قليلة- فيتطلب الأمر جهودا مضنية ومتنوعة وكثيرة، وآليات مختلفة ومتقاطعة لتحقيق أقصى مايمكن تحقيقه من تلكم النتيجة المأمولة والمرجوة والمبتغاة.

ولعل مذكرات الأشخاص عن الأحداث التي عاشوها أو كتب الرحلات التي عايش وعاين أصحابها أحوال البلدان التي زاروها هي أقرب مساعد على تشكيل صورة الحدث المرغوب إحياؤه –أو بالأحرى إسترداده- في العملية التاريخية، وكلما كانت هذه التدوينات الشخصية أوالملاحظات المسجلة أقرب إلى الفترة المدروسة كلما كانت حقيقة ماجرى في الماضي أقرب منالا إلى أيدي المؤرخين.

وهنا؛ سنضع بين أيدي القراء فقرات من كتاب البلدان لليعقوبي تتعلق بما يمكن أيكون رآه أو سمعه من أحوال بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) في فترة موغلة في الزمن تتمثل فيما بعد منتصف القرن الثالث الهجري(نهاية التاسع الميلادي) وبالضبط قبل قيام الدولة الفاطمية بالشمال الإفريقي لاستجلاء أوضاع هذه المنطقة في تلكم الفترة المبكرة ؛ سواءفيما يتعلق بالحكومات المحلية التي كانت قائمة آنئذ ،أو في أسماء المناطق أو توزيع القبائل أو طوبونيم المدن والقرى...ثم نعود بعد ذلك ونستعرض أحوال هذا المغرب الأوسط من جديد ولكن بعد حوالي قرن من تلك الفترة؛ أي في منتصف القرن الرابع الهجري(نهاية القرن العاشر الميلادي) وأقصد هنا ماتطرق إليه الرحالة الجغرافي ابن حوقل في كتابه المشهور: صورة الأرض.

أولا: المغرب الأوسط من خلال كتاب البلدان لليعقوبي

يبدأ اليعقوبي منطقة الزاب العظمى بمدينة طبنة التي كانت مقرا للولاة فذكر أنها كانت تضم أخلاطا من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم ...ثم ذكر مدينة تتبعها هي باغاية وكانت

بدورها تضم أيضا قبائل من الجند وعجم من أهل خراسان وعجم من عجم البلد من بقايا الروم وحولها قوم من البربر من هوارة بجبل جليل يقال له أوراس...ومدينة يقال لها تيجيس حولها قوم بربر عجم يقال لهم نفزة ، ثم ذكر بعد ذلك مباشرة مدينة ميلة وأنها عامرة ولم يلها وال قط لكنه أضاف أن بها حصنا يتولاه رجل من بني سليم يدعى موسى بن العباس بن عبد الصمد وكان قد عينه بنو الأغلب بإفريقية...ليسرد لنا اليعقوبي بعد ذلك المراسي الساحلية التابعة لها فذكر جيجل وقلعة حطاب وإسكيدة[كذا]و مابر و دنهاجة...ووصف بعدها مدينة سطيف وأن بها عمالا لبني الأغلب وهم من بني أسد بن خزيمة، أما مدينة بلزمة فهي تضم أقواما من تميم ومواليهم لكنهم خالفوا ابن الأغلب (في هذا الوقت) كما وصف مدينة نقاوس وأن بها قوما من الجند وحواليها بربر من مكنانة بطن من زناتة وحولهم قوم من أوربة...ثم مدينة مقرة بها قوم من بني ضبة وقوم من العجم حولهم قوم من البربر هم بنو زنداج وقوم كربرة ؟وسارسة؟ ثم حصون تسمى برحلس؟ وطلمة؟ ومبرور؟ بها أقوام من تميم من بني سعد من بني الصمصامة مخالفون لبني الأغلب لكنه ظفر بهم وحبسهم، وبقربهم جبل عليه مدينة تسمى أجة؟ وأهلها مخالفون أيضا لابن الأغلب يقال لهم سغمان و ورجيل من هوارة ...

أما آخر مدن الزاب مما يلي المغرب فهي أربة وهي للأغلب ولم يجاوزها المسودة ، ليأتي بعدهم بنو برزال من بني دمر من زناتة وهم شراة –أي خوارج- ورئيسهم مصادف بن جرتيل، ثم تأتي مدينة هاز سكانها بنو برنيان من زناتة، ثم مدن أخرى للبرانس من صنهاجة وزواوة ومنها حصن يقال له ابن كرام أهله جماعية ثم بلد متيجة تغلب فيه رجال منولد الحسن السبط، ثم مدينة مدكرة لولد محمد بن سليمان بن عبدالله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط، ثم مدينة الخضراء ومدن أخرى لولد محمد بن سليمان هذا،وآخر المدن التي بأيدهم سوق إبراهيم و تقرب من الساحل وهي لرجل منهم يقال له عيسى بن إبراهيم بن محمد بن سليمان...

هذا، ويركز بعدها اليعقوبي على المدينة(العظمى) التي تعرف باسم تاهرت وبها أخلاط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس يقال لهم بنو رستم وعليهم محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد

الرحمن بن رستم رأس الإباضية بالمغرب، والحصن الذي على ساحل البحر ترسى به مراكب تاهرت يقال له مرسى فروخ.

وبعد أن أفاض صاحب البلدان في ذكر الأندلس عاد إلى المغرب لبيان ما وراء تاهرت حيث ذكر مملكة رجل من هوارة يدعى ابن مسالة الإباضي لكنه مخالف لابن الأفلح أي بني رستم ليصف لنا مدينته المسماة الجبل؟ وبقربها مدينة يلل قرب البحر المالح، ثم مملكة بني محمد بن سليمان يسكنون (مدينة عظمى) يقال لها ثمطلاس يسكنها بربر من مطماطة ولهم مدينة يقال لها أبزرج يملكها رجل من مطماطة، تليها مدينة يقال لها الحسنة بالبربرية إذا فسرت بالعربية، يملكها رجل منهم يدعى عبيدالله.

وبعد ذلك مباشرة يأتي الحديث من اليعقوبي على مايسميه بالمدينة العظمى المشهورة بالغرب والمسماة بنلمسان وأنها مسورة بسور مضاعف وبها خلق عظيم وقصور ويحكمها رجل يقال له محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان، وحولها قوم من البربر يقال لهم مكناسة وسرسة، ثم هناك أيضا مدينة العلويين التي كانت في أيديهم ثم تركوها فسكنها رجل من أبناء ملوك زناتة يدعى علي بن حامد بن مرحوم الزناتي ، ثم تليها مدينة نمالتة فيها محمد بن علي بن محمد بن سلينان ، وآخر ممالكهم مدينة عظيمة تسمى فالوسن أهلها من مطماطة وترجة وجزولة وصنهاجة وأنجفة وأنحرة...ليأتي اليقوبي بعدها على ذكر مملكة نكور بشمال المغرب الأقصى وعلى ذكر مملكة الأدارسة العلويين بوسطه حول مدينة فاس وما في حكمها[1].

ثانيا: المغرب الأوسط من خلال كتابات ما بعد اليعقوبي:

مما يلاحظ على كلام ابن حوقل في توصيفه لمناطق المغرب الأوسط أنه أكد ما ذكره اليعقوبي قبل قرن من ذلك ، لكنه كان أكثر منه شرحا وإسهابا وتلبية الفضول العلمي والتنقيب التفصيلي بمزيد من المعلومات عن تلكم المناطق، بل إنه أضاف إلى ذكرها ذكر مناطق أخرى وزاد

[1]- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب 284 هـ) كتاب البلدان، المكتبة المنصورية ومطبعتها الحيدرية الهند (د.ت .ط) ص 108-114 .

عليها أيضا أنه راعى المتغيرات السياسية والمذهبية الحاصلة بتلك المجتمعات بعد قيام الدولة الفاطمية وتوسعها،وقد صرح أحيانا بميله لسلطانها الجديد، وربما دفعه الميل إلى التجني على بعض التجمعات السكانية لمجرد معارضتها لهذا المذهب(الإسماعيلي) وسلطته...

فمثلا نجده يصف مدينة باغاي[باغاية عند اليعقوبي]بأكثر من خمسة أسطر حول أسواقها وأسوارها ووادیها وبواديها واستقلال عاملها...بينما اكتفى اليعقوبي بتركيبة سكانها فقط، أما جبل الأوراس فقد أشار إليه كلاهما عند ذكر هذه المدينة لكن اليعقوبي يقتصر على ثلوجه وعلى سكانه من هوارة، بينما يشير ابن حوقل إلى مسافته من المدينة وإلى مياهه ومراعيه وعمارته ليستطرد قائلا:

"وكان أهله قوم سوء...مستطيلين على من جاورهم من البربر وغيرهم فهلكوا وأتى الله بنيانهم من القواعد".كذلك الأمر بالنسبة لمدينة طبنة حيث أشار اليعقوبي إلى سكانها وأضاف ابن حوقل إشارات إلى أنواع خيراتها وقال :"...وأهلها قبيلتان عرب و برقجانة وأكثر غلاتهم السقي...وكانت وافرة الماشية...فحدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض وأتى على نعمهم فصاروا بعد السعة إلى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلة مشردين في البلاد مطرحين في كل جبل وواد، وبقيتهم صالحة".

ويتوالى حديث ابن حوقل عن سائر المغرب الأوسط بهذا المنوال لكنه يشير دائما إلى امتداد السلطة الزيرية- القائد الصنهاجي ونائب الفاطميين-إلى ماوراء نهر ملوية من مدن وسكان مجالات المغرب الأقصى حيث تكثر محاولات الأمويين في الأندلس لإيقاف الإقتراب الفاطمي منهم ،ويعود لاستعراض المدن الواحدة تلو الأخرى؛ راجعا من فاس ومليلة... فأشار إلى مدينة العلويين وتنمسان[كذا] و قرية تعرف أيضا بالعلويين؟ وتاتانلوت وأفكان و المدينة العظمى تاهرت، ومنها إلى المعسكر قرية عظيمة، إلى جبل توجان إلى مدينة يلل إلى غزة؟ إلى شلف ،ومن سوق إبراهيم إلى تنس إلى بني واريفن إلى الخضراء إلى مليانة إلى سوق كران وهي حصن أزلي، إلى قريتي ريغة ومازوغة،

إلى مدينة أشير يسكنها آل زيري بن مناد...إلى تامزكيدا إلى الوادي المالح إلى المسيلة؛ ثم قال:"...وقد أتيت بهذا الطريق مقلوبا لأني سلكته من المغرب إلى إفريقية."[2].

وبالعودة إلى كتاب(البلدان) لليعقوبي فإننا سنجد تلك الفسيفساء المتنوعة –والمتداخلة أحيانا–فيما وراء حدود العباسيين التي حافظ عليها الأغالبة في تونس،ففي كل خطوة يخطوها هذا الرحالة يجد سلطة محلية صغيرة للبربر وعلى رأسها أحد الأشراف من السليمانيين أبناء عمومة الأدارسة دونما تبعية لهم، بل إنهم كانوا يتبعون تلمسان بشكل صوري[أي ما يشبه الحكم الكونفدرالي]...وتتخلل هذه الإمارات الصغيرة إمارات واصلية[معتزلية] وأخرى شراة[أي خوارج] هنا وهناك...بل ربما تجاورت في مدينة تاهرت سلطتان : إحداهما للرستمية الإباضية والأخرى لأسرة علوية سليمانية؟؟؟.

يذكر التنسي في كتابه (نظم الدر والعقيان) خبر بني سليمان بن عبدالله الكامل إخوة الأدارسة وأنهم أصبحوا ملوكا للمغرب الأوسط بعد وفاة إدريس الأول، إذ جاء أخوه سليمان متنكرا من المشرق حتى بلغ تاهرت فطلب الأمر هناك فلم يصدق البربر نسبه حتى يتحققوا واشتد بحث بني الأغلب عنه فجاء إلى تلمسان فبايعه من بها من قبائل زناتة وتملكها مدة طويلة ...

ويذكر التنيسي أن محمد بن سليمان هو الذي خلف أباه على حكم تلمسان رغم اتساق الملك لأبناء عمومته الأدارسة بفاس ومعظم المغرب الأقصى ، فاستعان محمد بابن عمه إدريس بن إدريس لتتحد جيوشهما في السيطرة على قلب المغرب الأوسط فتجاوزوا وادي شلف إلى أحواز بجاية حيث بقيت حدود الأغالبة متوقفة عند خط بجاية وسطيف وطبنة وبسكرة...وهكذا رجع إدريس الثاني إلى حاضرة ملكه تاركا المغرب الأوسط لابن عمه محمد ينظمه كيف يشاء، فقام بتوزيع أبنائه على النواحي فأقام ابنه عيسى بأرشكول وابنه الآخر إدريس بجراوة وابنه الثالث بتاهرت وابنه الرابع إبراهيم بتنس وأبقى عنده ابنه الخامس أحمد ليكون وليا للعهد... وفعلا، تملك تلمسان بعده وأبقى إخوته على ما تركهم عليه أبوه فصار كل من هو بموضع يتوارثه أعقابه، أما هو فخلفه ابنه

[2]- ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي، ق4 هـ)، كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة بيروت، 1992، ص 86-112.

محمد فحفيده القاسم الذي تغلب عليه الفاطميون...وأما عيسى صاحب أرشكول فخلفه ابنه إبراهيم فحفيداه على التوالي يحي وإدريس...[3]

وبالرغم من هذا الأمر الواقع تاريخيا فإن أحد المؤرخين المعاصرين قد حاول التملص من الإقرار بوجود هذه الإمارات ،وذلك بالتشكيك في أصل وجود الأسرات السليمانية باعتبار أن المجال المغاربي الذي هو بين الأغالبة والأدارسة إنما هو خالص للرستميين؛مع العلم أن أحد أقدم مؤرخي الإباضية وهوأبو زكريا يحي بن أبي بكر470هـ قد أقر بشكل تفصيلي بوجود حرب بين الإمام عبد الوهاب نجل المؤسس عبد الرحمن بن رستم، وبين جيش المعتزلة –أو بالأحرى الواصلية –كما يحلو لهذا المؤرخ أن يسميهم في كتابه الموسوم بعنوان(كتاب سير الأئمة وأخبارهم) وذلك في أكثر من عشر صفحات متتالية؛ قال في بدايتها :"وحدث غير واحد من أصحابنا أن الإمام عبد الوهاب – رضي الله عنه– لما أوهن الله على يده كلمة النكار وأورثهم الخزي والعار، تحركت الواصلية بعض الحركة وهم قوم من البربر أكثرهم من قبائل زناتة..."[4].

خلاصة القول؛ أن المؤرخ محتاج بالضرورة لاستخدام كل الآليات المعرفية والمصدرية المتاحة لاستكمال الصورة المطلوبة عن ماضي معين، ولعل كتب الرحالة وقدامى الجغرافيين وتدوينهم لملاحظاتهم خير معين في هذه العملية؛ فلو أردنا معرفة الواقع الذي كان عليه المغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري ومقارنته بواقع المناطق نفسها في القرن الموالي(الرابع الهجري) فما علينا سوى التمعن في ما قاله اليعقوبي في كتابه (البلدان) مع ما قاله ابن حوقل في كتابه(صورة الأرض) عن كل مدينة أو قرية ...

[3]- التنسي:نظم الدر والعقيان...ص134من كتاب نخب تاريخية...د/نبيلة عبد الشكور، مؤسسة كنوز الحكمة2012الجزائر ط1

[4]– أبو زكريا يحيى : كتاب سير الأئمة ...تحقيق إسماعيل العربي – ديوان المطبوعات الجامعية –الجزائر1984ط3، ص 101-113.